﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ [الأنفال: 46 - 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

ربْطُ الدَّعوةِ إلى الثَّباتِ والذِّكرِ باتِّخاذِ الأسبابِ المفضيةِ إلى النَّصرِ

لمّا أمرَهم بالثَّباتِ وذكْرِ اللّهِ كثيرًا في الآيةِ السّابقةِ؛ ناسبَ الاستمرارَ على الوصيَّةِ لهم، بأنْ يتمِّمَ ذكْرَ الأسبابِ المعينةِ على النَّصرِ[1]، وأيضًا لمّا أمرَهم برسوخِ الأقدامِ، وذكرِ اللّهِ على الكمالِ والتَّمامِ؛ أمرهم بأعمالٍ راجعةٍ إلى انتظامِ الجيشِ، والتئامِ الصَّفِّ، ووحدةِ الكلمةِ، وهي تمتينُ علائقِ بعضِهم مع بعضٍ، بالهرَعِ إلى الطّاعةِ، والالتزامِ بترْكِ التَّنازعِ والشِّقاقِ، والتَّحلّي بالصَّبرِ الجميلِ، واجتنابِ الكِبْرِ والرّياءِ والصَّدِّ عنِ السَّبيلِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِيحُكُمۡۖ﴾: أصلُ الكلمةِ: روحٌ، ويدلُّ على سعةٍ وفسحةٍ واطِّرادٍ، وأصل ذلك كلِّه الرّيحُ، وهي الهواءُ المتحرِّكُ، والجمع رياحٌ، وعامَّةُ المواضعِ الَّتي ذكرَ اللّهُ تعالى فيها إرسال الرّيح بلَفْظِ الواحِد، فهي بمعنى العذابِ، وكلُّ موضعٍ ذكرَ فيه بلفظِ الجمع، فهي بمعنى الرَّحمةِ، ويأتي اللَّفظُ على المجازِ بمعنى الغلبةِ، ومنه: (ذهبت ريحهم)، أي: دولتهم[3]، ومن ذلك قولُ الشّاعرِ:

إذا هَبَّت رياحُكَ فاغتَنِمها*** فعُقبى كُلِّ خافِقَةٍ سُكونُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (روح).

وإن دَرَّت نياقُكَ فاحتَلِبها*** فما تَدري الفَصيلُ لِمَن يَكونُ؟ [1]

2) ﴿بَطَرًا﴾: الباءُ والطّاءُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّقُّ، وسُمّي البيطارُ لذلك، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ عليه هو: تجمُّعُ مادَّةٍ فاسدةٍ في الباطنِ أو في الأثناء، فيشقُّ عنها: كما في إخراجِ الماءِ الَّذي في باطنِ الحافرِ، وهو فاسدٌ، ويقال لكلِّ من أرهق إنسانًا، فحمَّلَهُ فوقَ ما يُطيقُهُ: قد أبْطَرَهُ ذَرعَهُ، أي: ضيَّعَ واستهلكَ قوَّتَهُ، والبطرُ: دهشٌ يعتري الإنسانَ من سوءِ احتمالِ النِّعمةِ وقلَّةِ القيام بحقِّها، وصرفِها إلى غيرِ وجهها، ومنه: بَطَرُ النِّعمة: قلَّةُ احتمالها والطُّغيانُ بها، وعدمُ شكرها، فهو في ضوءِ ما سبقَ فسادُ النَّفس إزاءَ تلقّي النِّعمةِ ببخْسِ قيمتِها، أو بالإفسادِ بها، فتُهْدَرُ[2].

3) ﴿وَرِئَآءَ﴾: مشتقٌّ من الفعلِ (رأى)، يقال: فلانٌ مُراءٍ وقومٌ مُراؤونَ، والاسم الرّياءُ، وهو أن يفعلَ شيئًا ليراهُ النّاس، ويَظُنّوا به خَيْرًا، يُقالُ: فعَلَ ذلك رياءً وسُمْعَةً، ويُقال: أرْأى الرَّجُلُ؛ إذا أظهرَ عَملًا صالحًا رياءً وسُمْعةً[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــــوةٌ إلى طاعةِ اللهِ ونبذِ الفرقةِ، وتحفيزٌ على الصَّبرِ على العوائقِ

يرشدُهم السّياقُ أن أطيعوا اللّهَ ورسولَهُ، فيما أمركم بهِ، ونهاكم عنهُ، ولا تخالفوهما في شيءٍ، ولا تختلفوا، فتفرَّقوا، وتختلف قلوبُكم، فتضعفوا، وتجْبُنوا، وتذهب قوَّتُكم وبأسُكم، واصبروا على مشاقِّ الطّاعةِ واجتنابِ المعصيةِ، إنَّ اللّه معَ الصّابرين بتأييدِهِ ومعونتِه ونصرِه، ولا تكونوا مثلَ المشركينَ الَّذين خرجوا من بلدِهم كِبْرًا ورياءً؛ ليمنعوا النّاسَ من الدُّخول في دينِ اللّهِ، واللّهُ بما

(1) البيتان منسوبان لعليّ بن أبي طالب، وللشّافعي، وللمتنبّي، وللشّاعر ابن هندو العبّاسيّ، وهما من الحكمة السَّيّارة، واستشهد الزّمخشريّ بالمطلع. ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة: 1/393، والزّبيديّ، تاج العروس: 6/414.

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطر).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأى).

يعملون محيطٌ، لا يغيبُ عنه شيءٌ، ففي الآيةِ أمرٌ من اللّه (جلّ ثناؤه) إلى المؤمنين بهِ وبرسولهِ، ألّا يعملوا عملًا إلّا للّهِ مخلصًا، طلبًا لما عنده[1]، وابتغاءً لمرضاتهِ وفضلهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قولهِ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

طـاعـةُ اللـهِ ورسـولـه أهـمُّ أسبـابِ النَّصرِ المبينِ

جاءَ الوصلُ بالواو، ليفيدَ عطفَ ما في هذهِ الآيةِ على جوابِ الشَّرطِ في قولهِ: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لمناسبةِ عطفِ الطَّلبِ على الطَّلبِ، وتصدَّرتِ الآيةُ بالأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولهِ، ولم تكن ضمنَ الآيةِ السّابقة لتعظيمِ أمرِ الطّاعة، وللإشعارِ بأنَّ طاعةَ اللّهِ ورسولِه تحقّقُ الثَّباتَ في القتالِ وتقوّيهِ، فيكونُ التَّخصيصُ بالأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولهِ هنا فيه تأكيدٌ.[2]

مناسبةُ العطفِ في قولهِ: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

الامتثالُ لطاعةِ اللـهِ العظيمِ، لا معنى له دونَ طـاعـةِ رسـولِـه الكريمِ

عطفَ لفظَ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على الاسمِ الجليلِ، للإشعارِ بأنَّ طاعةَ رسولِه من طاعتهِ، وأنَّ الامتثالَ لطاعةِ اللّهِ تعالى، لا يحصلُ من دونِ طاعةِ رسولهِ، ولمّا كان المقامُ مقامَ ذِكرِ لقاءِ الفئةَ، لقاء الفئة؛ أفادَ التَّنبيهُ على وجوبِ طاعةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، في الإقدامِ والإحجامِ في القتالِ، لجهلِهم بالعواقبِ[3]، كما أنَّ العطفَ أشارَ إلى تقريرِ أمرِ خمسِ الغنيمةِ، فإنَّ ما كانَ لرسولِ اللّهِ، فهو للّهِ تعالى.

دلالةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ في: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

تـنـويـهٌ بمكانةِ الـــرَّســـولِ الـقـداسـيَّـةِ بإضافةِ الرَّسولِ إليهِ في الطّاعةِ

أضيفَ لفظُ (رَسولِ) إلى الضَّميرِ العائدِ إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، لكونِه مذكورًا، فهو مقرَّرٌ في ذهنِ السّامعِ، وللإيذانِ أنَّ طاعةَ رسولِ اللّهِ، هي نفسُها طاعةٌ للّهِ تعالى؛ لأنَّ الآمرَ بها، والواضعَ لها ذلك الموضعَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/576، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 183.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/305.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/293.

مِنَ التِّجلَّةِ والتَّكرمةِ، هو اللهُ (تعالى)، إضافةً إلى أنَّ الرَّسولَ مذكورٌ بلفظِ الرَّسولِ، وهو يعني: أنَّ الطّاعَةَ للهِ بالأصالةِ، وأنَّ العطفَ والإضافةَ لطاعةِ رسولِهِ، يوحي بأنَّ أصلَ طاعةِ الرَّسولِ، راجعةٌ إلى طاعةِ اللهِ في الأساسِ.

فائدةُ حذفِ تاءِ المضارعةِ في: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾:

حُذِفَت تاءُ الفعل في قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ تخفيفًا، والتَّقديرُ: (ولا تتنازعوا)، ولعلَّ فيه إشارةً إلى أنَّ التَّنازعَ - وإنْ قلَّ - منهيٌّ عنهُ، ولذلك قالَ لهم: "وَلا تَنازَعوا باختلافِ الآراءِ، كما فعلتُم يومَ بدرٍ، في أوَّلِ الأمرِ، ويومَ أحدٍ، فتَفْشَلوا، أي: تجْبُنوا"[1].

التَّنازعُ وإنْ قلَّ ينبغي اجتنابُهُ؛ لأنَّـــهُ خيبـةٌ وفسادٌ

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿تَنَٰزَعُواْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ لإفادةِ العمومِ، فليس الأمرُ مختصًّا بالتَّنازع في رأيٍ معيَّنٍ، ولا في أمرِ الغنيمةِ أو في القتالِ، والمعنى: لاتنازعوا في أيِّ رأيٍ، للإشعارِ بأنَّ التَّنازعَ سببُ كلِّ شرٍّ، ولم يقل: (ولا تنازعوا فيما بينكُمْ)، للإيجازِ في الكلامِ، فإنَّ التَّنازعَ بمعنى: أن ينزعَ بعضُ القومِ بعضًا، وليفيدَ النَّهيُ عمومَ المنازعةِ، ليعمَّ الأفرادَ والجماعاتِ.

التَّنازعُ سببُ كلِّ شرٍّ، وهو المفضي لكلِّ خيبةٍ وهزيمةٍ

مناسبةُ النَّهي عن التَّنازعِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾:

لمّا كانت طاعةُ اللهِ ورسولِهِ، تفيدُ الموافقةَ بينَ المسلمين في أصلِ الدّين؛ ناسبَ أن يعطفَ عليها قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، ليؤذنَ أنَّه كما تجبُ الموافقةُ في الدّين والعقيدةِ، تجبُ الموافقةُ في الرَّأي والعزيمة[2]، وليشعرَ أنَّ طاعةَ اللهِ ورسولِهِ، لا تكفي في النَّصرِ من دونِ اجتنابِ التَّنازعِ في الآراءِ.

أوَّلُ الفسادِ التَّنازعُ، ورأسُ الزَّللِ الاختلافُ

(1) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 4/97.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/629.

مناسبةُ عطفِ النَّهي عَنِ المنازعةِ على الأمرِ بالطّاعةِ:

اجتنابُ التَّنازعِ لـونٌ مـن طاعةِ الـلـهِ وطـاعـةِ رسولِه

لمّا كانَ الأمرُ بطاعةِ اللهِ ورسولِه في قولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، عامًّا شاملًا، لِكلِّ ما تأتون وما تَذرون، ليعمَّ فعلَ المأموراتِ، وتركَ المنهيّاتِ الَّتي تشملُ التَّنازعَ، كان النَّهيُ عن التَّنازعِ في قولِه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ ليكونَ تأكيدًا للنَّهي عن التَّنازع، وتقريرًا لهُ، لاندراجِه في الأمرِ بطاعةِ اللهِ ورسولِه، اندراجًا أوَّليًّا وهكذا الأمرُ بالصَّبرِ، ففيهِ معنى التَّأكيد[1]، وإنْ كان المرادُ من الأمرِ بطاعةِ اللهِ ورسولِه الأمرَ بطاعةِ ولّاة الأمورِ، فيكونُ من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، حتَّى يرتقي النَّهي بهم من الأدنى إلى الأعلى، وذلك لأنَّ النَّهيَ عن التَّنازعِ، أعمُّ من الأمرِ بطاعةِ ولّاة الأمورِ؛ لأنَّهم إذا نُهوا عن التَّنازع بينهم، فالتَّنازعُ مع أولي الأمرِ أولى[2].

دلالةُ الفاءِ بين السَّببيَّةِ والعطفِ:

التَّنازعُ والفشلُ مـذمـومـانِ على مستوى الأفـرادِ والجماعاتِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾، الأظهرُ أنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ سببيَّةٌ؛ لأنَّها وقعت في جواب النَّهي، فيكونُ ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ منصوبًا بأنْ مضمرة، ليفيدَ أنَّ الفشلَ، مسبَّبٌ عن التَّنازعِ، بمعنى: أنَّ التَّنازعَ سببٌ للفشلِ، ولمّا كان المسبَّبُ - وهو (الفشلُ) - مذمومًا عندَ الأفرادِ والجماعاتِ، بحكم العقلِ والفطرةِ؛ دلَّ على ذمِّ السَّببِ، وهو (التَّنازع)، ويكون قولهُ: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بنصبِ الفعلِ ﴿تَذْهَبْ﴾، معطوفًا على ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾، ويمكنُ أن تكونَ الفاءُ عاطفةً، فيكونَ الفعلُ ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ مجزومًا، لدخولِه في حكمِ النَّهي بـ(لا)، في قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ والتَّقدير: لاتنازعوا، فلا تفشلوا، والمعنى على النَّهي عن الأمرين: التَّنازعِ والفشلِ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/31.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/332.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّركيبِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾:

كلُّ تنازعٍ يعقبهُ الفشلُ، ويُطْبِقُ من جرّائِه الضَّعفُ

لمّا كانَ الرّاجحُ أنَّ الفاءَ هنا سببيَّةٌ؛ أفادَ أنَّ التَّركيبَ تضمَّنَ نهيًا واستدلالًا، على وجوبِ الامتثالِ ببيانِ سببِ النَّهي، وهو الَّذي يسمَّى في البلاغةِ (العلَّة الغائيَّة)، وبيانهُ أنَّه لمّا قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، أفادَ النَّهيُ طلبَ انتفاءِ التَّنازعِ وتركَهُ، ولمّا أرادَ أنْ يستدلَّ على ذمِّ التَّنازعِ، ليكون أدعى إلى التَّركِ، ذكرَ ما يكونُ مسبَّبًا عن التَّنازع، وهو الفشلُ، فيكون المرادُ من الكلام أمرين: النَّهيَ وبيانَ سببِ النَّهي، والنَّهي هنا على تقديرِ شرطٍ مفادُهُ: لا تنازعوا، فإنْ تتنازعوا؛ تفشلوا[1]، فيكون ذكرُ الفاءِ بيانًا للسَّببِ، وإشعارًا بوقوعِ الفشلِ عقبَ التَّنازعِ من غيرِ مهلةٍ، ليكونَ التَّركيبُ على معنى المبالغةِ في التَّحذيرِ من المنهيِّ عنه، وفيه معنى آخر، هو من لازمِ الفائدةِ، والمعنى: إن لم تتنازعوا؛ لن تفشلوا، ولن تذهبَ دولتُكم وقوَّتُكم وهيبتكم، ولازم اللّازم: اجتماعكم قوَّةٌ لكم، وهيبةٌ في عيونِ الآخرين.

دلالةُ النَّهي في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾:

النَّهيُ عنِ التَّنازُعِ على الاستمرارِ؛ لأنَّهُ على المدى فسادٌ ودمارٌ

لمّا كان التَّنازعُ قد وقعَ يومَ بدرٍ على الغنيمةِ، ويومَ أُحُدٍ على تركِ الموقعِ على الجبلِ، وكان الخطابُ بالنَّهي على معنى العموم لجميعِ المؤمنين في موردِ النِّداء؛ لأنَّه لم يُرِدْ به مخاطَبًا بعينِه، ولمّا كانَ النَّهيُ راجعًا إلى اتِّصالِ الواقعِ، بما عليهِ المؤمنونَ، من تركِ التَّنازعِ، وليس إلى قطعِ الواقعِ؛ دلَّ على أنَّ النَّهيَ، على معنى الاستمرار، وليس على المرَّة[2].

سببُ كونِ التَّنازعِ سببًا للفشلِ:

التَّنازعُ جبنٌ وخورٌ، والاتِّفاقُ قوَّةٌ وتمكينٌ

قد يقالُ: لمَ قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، دونَ أن يقولَ: (ولا تختلفوا مثلًا)؟ والجوابُ: أنَّه لمّا كان التَّنازعُ على معنى: أنَّ كلَّ واحدٍ من

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 321، والتّفتازاني، المطوّل، ص: 428 - 429.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 321.

المتنازعين، يريدُ أن ينزعَ ما عندَ الآخرِ من رأيٍ، ويلقي به، أو كان على معنى نزعٍ إلى الشَّيء نزوعًا؛ إذا مالَ إليهِ، فإنَّ كلَّ واحدٍ من المتنازعين في الأمر، يميلُ إلى غيرِ ما يميلُ إليهِ الآخرُ، فيفيدُ كلا الوجهين، التَّغاضبَ وانتفاء التَّعاون بين القوم، والتَّفرُّق؛ لِلانشغالِ باتِّقاءِ بعضِهم بعضًا، فيصرفُ الأمَّةَ والجيشَ عن الإقدام على أعدائِهم، فيتمكَّنُ منهم العدوُّ، فكان التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ دونَ غيرِه، على مقتضى بلاغةِ الكلامِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، أو المكنيَّةِ:

الهيبةُ عدمُ التَّفرُّقِ، لا في التَّشرذمِ والتَّمزُّقِ

في قولهِ: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ عن الغلبةِ أو الشَّوكةِ، أو الدَّولة؛ إذ شبَّهَ الدَّولةَ والشَّوكة بالرّيحِ، فحذف المشبَّهَ، وذكرَ المشبَّهَ بهِ، وشُبِّهتِ الدَّولةُ أو الغلبةُ بالرّيح، من حيثُ إنَّها في تمشّي أمرِها ونفاذِه، مشبَّهةٌ بها في هُبوبها، فلا يمنعُ جَرْيَها ونفاذَها شَيْءٌ[2]، ويمكنُ حملُها على الاستعارةِ المكنيَّةِ، وتكون الرّيحُ مستعارةً للقوَّةِ[3]، وأصلهُ: أنَّ الرَّيح إذا كانت في الحرب من جهة صفٍّ؛ كانت في وجوه أعدائهم، فمنعتهم ممّا يريدون، فخذلوا، فصارت كأنَّها قوَّةُ مَنْ أتتْ مِن عندِه، فصارت ممّا يستعارُ للكنايةِ عن القوَّةِ في المواجهاتِ والقتالِ[4]، ويمكنُ أن تكونَ الرّيحُ مستعارةً، لِلهيبةِ والرُّعب في نفوس الأعداء؛ لأنَّهما من لوازمِ القوَّةِ، وكنايةٌ عنها، والمعنى: فتذهبُ هيبتُكم ورعبُكم، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكونَ الكلامُ على الحقيقةِ، ويكونُ المرادُ بالرّيح الحقيقةَ، أي: ريحُ النَّصرِ الَّتي يرسلُها اللهُ ﷻ لنصرِ أوليائهِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/425، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/215، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31، وينظر: الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7540.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/294.

وهلاك أعدائه[1]، وفي الحديثِ قال رسولُ اللّه ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ»، والصَّبا هي ريحُ النَّصرِ، والدَّبورُ هي رياحُ الهلاكِ[2].

بلاغةُ العطفِ في جملتي الجزاءِ في قولهِ: ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾:

لمّا كان التَّنازعُ سببًا للفشلِ، والفشلُ سببًا لذهابِ الدَّولةِ وتوابعها؛ دلَّ على أنَّ الشَّرطَ - وهو التَّنازع - سببٌ لذهابِ الدَّولةِ بوساطةِ كونِه سببًا للفشلِ، فكانَ النَّهيُ عن التَّنازع مفيدًا انتفاء الفشلِ، وما عطفَ عليهِ[3]، "لأنَّ التَّنازعَ هو تعاندُ القوَى، أي: توجدُ قوَّةٌ تعاندُ قوَّةً أخرى، والقوى المتعاندةُ، تهدرُ طاقةَ بعضِها البعضَ، فالتَّعاندُ بين قوَّتين، يهدرُ طاقةَ كلٍّ منهما، فتصبحُ كلُّ قوَّةٍ ضعيفةً وغيرَ مؤثِّرةٍ"[4].

التَّنازعُ سببٌ لذهابِ الدَّولةِ وقوَّتِها، والأمَّةِ وتماسكِها

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولهِ: ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ و﴿وَتَذْهَبَ﴾:

لإفادةِ تكرُّرِ الفشلِ وذهابِ ريحِكم إنْ تنازعتم، وأنَّه سيكونُ مستمرًّا على معنى تجدُّدِهما حالًا فحالًا، ليدلَّ على أنَّ الفشلَ والضَّعفَ يذهبُ شيئًا فشيئًا، ومثله قوَّةُ الدَّولةِ والهيبةِ، يذهبانِ شيئًا فشيئًا، "والفشلُ هو إخفاقُ الإنسانِ دونَ المهمَّةِ الَّتي كانَ يرجوها من نفسِه"[5].

تلاشي الدَّولةِ والقوَّةِ شيئًا فشيئًا، إن وقعَ التَّنازعُ الماحقُ

دلالةُ الإضافةِ للفظِ (الرّيح):

في قولهِ تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الإضافةُ هنا للتَّخصيصِ، بمعنى الرّيحِ الَّتي خصَّكم اللّهُ بها، إشعارًا بالنِّعمةِ، وحثًّا على

من علامةِ النَّصرِ أن تهبَّ ريحٌ من جهةِ المقاتلين إلى وجوهِ الأعداءِ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/324، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/215، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/332، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.

(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (1035)، مسلم، الصحيح، برقم: (900).

(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 234.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4723.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4727.

دوامِها، بدوامِ سببِها، وهو تركُ التَّنازع، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الإضافةَ هنا، لأدنى ملابسةٍ، لتكونَ الرّيح على المعنى الحقيقيِّ لها؛ للإشعارِ بأنَّ الأغلبَ والأشهرَ، هو أنَّ علامةَ الكسرِ، ذهابُ الرّيحِ من وجوهِ الأعداءِ، كما أنَّ علامةَ النَّصرِ أن تهبَّ ريحٌ من جهةِ المقاتلينَ إلى وجوهِ الأعداءِ[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

طويَتْ بعضُ الجملِ، على طريقِ الإيجازِ لوضوحِها، فحذفَ لازمَ الشَّرطِ، وهو (تفرَّقتم)، والتَّقدير: (ولا تنازعوا؛ لأنَّكم إذا تنازعتم؛ اختلفتم وتفرَّقتم)، ولمّا ذكر الجزاءَ في قولِه: ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ حذفَ لازمَهُ، وهو (فَلا تُنْصَرونَ)، والتَّقديرُ: (فإذا تفرَّقتم؛ فشلتم، وجبنتُم، وذهبت قوَّتُكم وغَلَبَتُكم؛ فلا تنصرونَ، ولا تظفرونَ على عدوِّكم؛ بل يظفرُ بكم عدوُّكم)[2].

التَّنازُعُ سببٌ لانتفاءِ النَّصرِ، وحتميَّةٌ لانتصارِ العدوِّ على المتنازعين

مناسبةُ الأمرِ بقولِه: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾:

لمّا كانَ ما تقدَّم من الأوامرِ والنَّواهي، فيه مشاقٌّ، جاء بلفظٍ عامٍّ جامعٍ للمعاني[3]، فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، أي: على ما يكونُ من المشاقِّ، ولمّا جاءَ في سياقِ هذه الآيةِ، اندرجَ فيه الصَّبرُ في القتالِ - والصَّبرُ على طاعةِ اللهِ ورسولِه وعن التَّنازعِ - اندراجًا أوَّليًّا، ليشعرَ أنَّ النَّصرَ لا يقعُ من غيرِ صبرٍ.

النَّصرُ معَ الصَّبرِ، ومن صبرَ ظفرَ

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿وَٱصْبِرُواْ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ فعلِ الأمرِ ﴿وَٱصْبِرُواْ﴾، إمّا ليفيدَ العمومَ، والمعنى: (اصبروا على طاعةِ اللهِ ورسولِه، وعلى شدائدِ الحربِ، واصبروا مع نبيِّ اللهِ ﷺ عندَ لقاءِ عدوِّكم، ولا تنهزموا عنه، وتتركوهُ، واصبروا على مخالفةِ أهوائِكم الَّتي تحملُكم على التَّنازع)، ويكون المرادُ بيانَ

الصَّبرُ على طاعةِ اللهِ، كالصَّبرِ على مخالفةِ الأهواءِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/97.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/232.
(3) الرّاغب، المفردات: (صبر).

عمومِ ما يتعلَّقُ بهِ الصَّبرُ، وإمّا ليفيدَ التَّحلّي بالصَّبرِ على الجملةِ، بمعنى أن يكونَ الصَّبرُ نفسُهُ، معنًى ثابتًا في أنفسِهم[1].

حسنُ التَّذييلِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

جملةُ التَّذييلِ كالمثلِ في جريانِها في الكلامِ

أفادتْ جملةُ التَّذييلِ فوائدَ؛ هي أوَّلًا: تأكيدُ مفهومِ ما تقدَّمها، للإشعارِ بأنَّ الامتثالَ للأوامرِ والنَّواهي لا يكون من غيرِ صبرٍ. وثانيًا: لمّا كانت الجملةُ على معنى العمومِ والكُلّيَّة؛ أفادتْ أنَّ اللّهَ تعالى مع كلِّ صابرٍ من المؤمنينَ. وثالثًا: لمّا كانت الجملةُ على معنى العمومِ، كانت بمنزلةِ المثلِ في جريهِ في الكلامِ. رابعًا: أفادَ تأكيدُ مضمونِ الجملةِ بـ(إنَّ)، ومجيئُها جملةً اسميَّةً: تقريرَ المعنى؛ حثًّا للمؤمنين على الصَّبْر والمداومةِ عليه؛ لأنَّ ترويضَ النُّفوسِ وحبسَها على مقتضى العقلِ والشَّرعِ يحتاجُ إلى صبرٍ. خامسًا: في جملةِ التَّذييلِ إيماءٌ إلى منفعةِ الصَّبرِ الإلهيَّةِ، وهي إعانةُ اللّهِ لمن صبرَ امتثالًا لأمرِه[2].

دلالةُ لفظِ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

دلالةُ (إنَّ) على معنى السَّببيَّةِ، تربطُ المضمونَ بالمقصدِ القيَميِّ

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، كما تقدَّمَ، كما تفيدُ تعليلَ الأمرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ حرفَ التَّأكيدِ في مثل هذا، قائمٌ مقامَ فاءِ التَّفريع[3]، والمعنى: (اصبروا؛ لأنَّ اللّه مع الصّابرين)، ففيهِ بيانُ سببِ الأمرِ للمبالغةِ في الحثِّ على الامتثالِ.

نكتةُ ذكرِ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

قوَّةُ اللهِ وإعانتُهُ للصّابرينَ، نعمةٌ لكلِّ محتسبٍ صبورٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ذكرَ الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ أن يقولَ: إنَّ ربَّكم مع الصّابرينَ، للإيذانِ بالإمدادِ والقوَّةِ، والإعانةِ والغلبةِ للصّابرينَ، لما يدلُّ عليه مقامُ الألوهيَّة، اقتضاءً لمقامِ الكلامِ وسياقِه، فالصَّبرُ سلاحُ المؤمنِ الَّذي لا يفلُّ،

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 155.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32.

ولقد قيلَ: (الشَّجاعةُ صبرُ ساعةٍ)، وكفى بالصَّبرِ شرفًا أنَّ اللَّهَ مع الصّابرين بالمعونةِ والمددِ والتَّأييدِ إلى الأبدِ.

دلالةُ الحرفِ ﴿مَعَ﴾ في قولِهِ: ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿مَعَ﴾ يفيدُ أصالةَ المذكورِ بعدَهُ، وتبعيَّةَ ما قبلَهُ على سبيلِ الاجتماعِ في زمانٍ أو مكانٍ[1]؛ أفادَ أنَّ المرادَ من أصالتِهم، إنَّما هي من حيثُ إنَّهم المباشِرون للصَّبرِ، فهم متَّبعونَ من تلك الحيثيَّةِ، ومعيَّتُهُ تعالى، إنَّما هي من حيثُ الإمدادُ والإعانةُ، والنُصرةُ والكَلاءةُ والحفظُ، في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ، يكونونَ فيه، والأغلب أن تكونَ للمكانِ، والمعنى: كلَّما صبرْتُم؛ كان إمدادُهُ تعالى ونصرُهُ تابعًا لكم في أيِّ مكانٍ تكونونَ فيه لا يفارقكم[2]، واللّهُ يعطي على الصَّبرِ بلا حسابٍ، ويوفّي الصّابرين أجرَهم، لما للصَّبرِ من مزيَّةٍ، وما لأهلِهِ من مقامٍ عندَ اللّهِ، تُرْفَعُ بِهِ درجاتُهم، وتضاعفُ به أعمالهُم عندَ من لا تضيعُ عندَهُ الأعمالُ، ولا يُظلمُ عندَهُ أحدٌ فتيلًا، وقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزّمر: 10].

أينما وُجِدَ الصَّبرُ؛ وُجِدَ إمدادُ اللهِ الَّذي لا ينفدُ

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، لمّا جاءَ الاسمُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ، دلَّ على أنَّ اللّه تعالى مع المؤمنين الَّذين يكونُ الصَّبرُ وصفًا لازمًا لهم، لاينفكُّ عنهم، وقد جاءَ السّياقُ في حثِّه على الوحدةِ والصَّبرِ، "ليشدَّ تلك الجماعةَ بعضَها إلى بعضٍ، بعد أن شدَّ كلَّ فردٍ فيها إلى موطنِ العزمِ والصَّبرِ من نفسِه"[3].

الصّابِرُ هو الَّذي يكونُ الصَّبرُ وصفًا ثابتًا لهُ، لا مؤقَّتًا

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

لمّا حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿وَٱصْبِرُواْ﴾، فكان دالًّا إمّا على العمومِ أو على معنى الاتِّصافِ بالصَّبرِ، ليكونَ معنًى ثابتًا لهم، ناسبَ أن

تناسقُ اللَّفظِ لتناسقِ المعنى

(1) الرّضي، شرح كافيّة ابن الحاجب: 3/311، والسّامرائي، معاني النّحو: 2/243 - 244.
(2) ابو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/628.

يحذف متعلَّق ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ ليكون على نسقِه وشبهِه في المعنى، وليوافقَ المعلولُ علَّتَهُ.

بديعُ جناسِ الاشتقاقِ:

الأمـرُ بالثَّباتِ عـلى الـصَّـبرِ، والمداومةِ عليهِ في كلِّ أمرٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ مغايرٍ، وغرضُهُ بيانُ قيمةِ الثَّباتِ على الصَّبرِ والمداومةِ عليهِ بكلِّ أحوالِه، وقد استعملَ فعلَ الأمرِ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ في البدايةِ للحثِّ على الصَّبرِ والاستعانةِ على لأواءِ مصادمةِ الأعداءِ بالثَّبات والتَّصبُّرِ؛ لأنَّهُ المنجى والسَّندُ في تلك الحالِ، واستعملَ اسمَ الفاعلِ في بيانِ أنَّ اللّٰه مع الصّابرين، ومن كانَ اللّٰهُ معهُ، فلا يخاف دركًا ولا يخشى.

مناسبةُ الوصلِ بالواو في: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

الائـتـمـارُ بالامتثالِ للطَّلبِ أمرًا أو نهيًا

أفادتِ الواوُ استمرارَ وصيَّةِ اللّٰهِ للمؤمنين، فعطفت جملةَ النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ على جملةِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، فيكون الكلامُ من عطفِ جملة النَّهي على جملةِ النَّهي، ويحتملُ أن تكونَ قد عطفت جملةَ النَّهي على جملةِ ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾، فيكونُ من عطفِ جملةِ النَّهي على جملةِ الأمر، وهو بالمجمل من عطفِ الطَّلبِ على الطَّلبِ[1]، إكمالًا لأسباب النَّصرِ عند اللِّقاءِ، وفي كلا الحالين هو من عطفِ تكليفٍ على تكليفٍ.

براعةُ الجمعِ بين فائدةِ الخبرِ ولازمها:

الأمـرُ بالاتِّصافِ بضدِّ ما يفعلهُ المشركونَ بسببِ شركهم

لمّا قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾؛ دلَّ على أنَّ المرادَ منه، نهيُ المؤمنين عن الخروجِ على الحالةِ الَّتي خرج عليها المشركون من ديارِهم، ويكون هو فائدةَ الخبرِ، وفيه إيذانٌ بلازمِ الفائدة، على معنى أمرِ المؤمنينَ بالخروجِ على ضدِّ ذلك، كأنَّه قال: اخرجوا بحالٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32.

ووصفٍ، على ضدِّ ما خرجوا هم عليهِ، أي: مِن تقوى اللّهِ، والخشيةِ منهُ، مخلصين أعمالَكم للّهِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دِيَـٰرِهِم﴾:

استحكامُ المشركين على ما خرجوا عليهِ مِنَ الأوصافِ الذَّميمةِ

في قولهِ تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ عبَّرَ بلفظِ ﴿دِيَـٰرِهِم﴾ دونَ (منازلهم) أو (بيوتهم)؛ لأنَّ الدّارَ هو الموضعُ الَّذي يحلُّ به القومُ، ويشتملُ على بيوتٍ ومنازلَ، بحيثُ يكونُ لهُ حرمٌ يحيطُ بهِ[2]، فدلَّ على أنَّهم خرجوا جميعًا من محيطِ حرمِهم، بطرًا ورئاءَ النّاس، ويصدّونَ عن سبيلِ اللّهِ، إشعارًا باستحكامِهم على ما خرجوا عليهِ، واجتماعِهم على الأوصافِ المذكورة، تأكيدًا وتقريرًا للمبالغةِ في ذمِّهم، وأنَّ خروجَهم مجتمعينَ، كان سببًا في اتِّصافِهم بالأحوالِ القبيحةِ، ولو قال: (منازلهم أو بيوتهم)؛ لأفادَ خروجَهم منفردين؛ لأنَّ البيتَ: هو اسْمٌ لمسقفٍ واحدٍ لَهُ دهليزٌ، والمنزلَ: اسْمٌ لما يشْتَمل على بيتٍ يسكنهُ الرَّجلُ بعيالهِ، بمعنى: خرجَ كلُّ واحدٍ منهم من بيتهِ، أو من منزلهِ، ففيهِ معنى الضَّعفِ والتَّشتُّتِ، كما أنَّه قد يوهمُ أنَّ الأوصافَ المذكورةَ، أحوالٌ لهم على الغالبِ، وليس على الاستيعابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿دِيَـٰرِهِم﴾:

تنوُّعُ الأقوامِ الَّذين خرجوا لقتالِ المسلمينَ

في قولهِ تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾، لمّا كانَ لكلِّ قومٍ من أهلِ مكَّةَ دارٌ، بمعنى محلَّةِ تجمُّعهم، دلَّ على أنَّ المرادَ خروجُ أقوامٍ من ديارِهم، فلم يكونوا من قومٍ معيَّنين، إشعارًا بكثرتِهم، والخروجُ بوصفِ الكثرةِ إشارةٌ إلى الخطْبِ الَّذي بسببهِ خرجوا من ديارِهم، وأنَّ ما عزموا على فعلِه من استعراضٍ للقوَّةِ، واحتفالٍ بما كانَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/234، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/24، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دور)، والكفويّ، الكليّات، ص: 239.

غرضُهُ إخافةَ الآخرين، كان فعلًا جماعيًّا، اقترحهُ الزُّعماءُ والعتاةُ، ولكنَّ المشاركين فيهِ، كانوا كلَّ الخارجين من ديارِهم.

بديعُ الإدماجِ لمعنيين مع النَّهي:

بيانُ قبحِ المنهيِّ عنهُ سببٌ مقنعٌ لاجتنابه

لمّا كانَ الأصلُ في الكلامِ النَّهيَ عن التَّشبُّهِ بالمشركين في بطرِهم، ورئائِهم، وصدِّهم عن سبيلِ اللهِ؛ أدمجَ معنيين مع النَّهي، هما التَّشنيعُ على المشركين بذكرِ أحوالِهم القبيحةِ، وتكريهِ المسلمين تلكَ الأحوال؛ لأنَّ الأحوالَ الذَّميمةَ، تتَّضِحُ مذمَّتُها، وتنكشفُ مزيدَ الانكشافِ، إذا كانت من أحوال قومٍ مذمومين عند آخرينَ، وهذا أبلغُ في النَّهي، وأكشفُ لقبح المنهيِّ عنهُ، فإنَّ بيانَ قبحِ المنهيِّ عنهُ، سببٌ مقنعٌ لتركِه واجتنابه[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ﴾:

إبرازُ المشركينَ في معرضِ التَّقبيحِ والتَّوبيخ للتَّنفيرِ من حالِهم

لمّا كان الأصلُ في المشبَّهِ بهِ أنْ يكونَ أعرفَ بجهةِ التَّشبيهِ من المشبَّهِ، وأخصَّ بها؛ دلَّ على أنَّ المشركين معروفونَ بالأوصافِ المذكورةِ، ولمّا كان وجهُ الشَّبهِ ما ذكرَ من أحوالِهم من البطرِ والرِّئاءِ والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، كان وجهُ الشَّبهِ قريبًا؛ لظهورِ الأحوالِ على الذَّواتِ، فهي بمنزلةِ المحسوساتِ، ومجيءُ ما يدلُّ على وجه الشَّبهِ – وهي الأحوالُ المذكورةُ المجتمعةُ – يفيدُ حضورَ صورةِ التَّشبيهِ بحضورِ ذواتِهم، فهي صورةٌ متكرِّرةٌ على الحسِّ بمجرَّدِ حضورِ ذواتِهم في الذِّهن، والغرضُ من التَّشبيهِ هنا، إبرازُ الَّذين خرجوا من ديارِهم إلى المخاطبينَ في معرضِ التَّشويهِ والتَّقبيح والتَّوبيخِ، للتَّنفيرِ من حالِهم، وفائدةُ التَّشبيهِ أنَّه تعالى لمّا نهى المؤمنين عن التَّشبُّهِ بأحوال المشركين المذكورةِ المجتمعةِ؛ دلَّ على أنَّ الأحرى بهم، ألّا يتَّصفوا بها؛ لأنَّ الاتِّصافَ بأمرٍ، أقوى من التَّشبُّهِ بهِ، والمعنى: بدلًا من أن يقولَ اللهُ تعالى للمؤمنين: إذا خرجتُم من ديارِكم، لا تبطروا، ولا تراؤوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32 - 33.

النّاس، ولا تصدّوا عن سبيلِ اللّهِ، عبَّرَ بأسلوبِ التَّشبيهِ، ليكونَ أبلغَ في النَّهي، وأوضحَ للمعنى، لحضورِ الصّورةِ أمامَهم.

دلالةُ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ﴾ بينَ الحالِ والمفعولِ لأجلِهِ:

اقترانُ الأوصافِ القبيحةِ بالمشركينَ من وقتِ خروجِهم للقتالِ

ذهبَ جمهورُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ﴾ أحوالٌ، فجاء ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مصدرين على معنى الحالِ، أي: بَطِرينَ مُرائين، وجاء ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ فعلًا في موضع الحال، أي: صادّين؛ ليكونَ المرادُ اقترانَهم بهذهِ الأحوالِ، وانتفاءَ انفكاكِهم منها من وقتِ خروجِهم، وليس المرادُ في الكلامِ انتفاءها عنهم، قبلَ الخروجِ، وذهبَ آخرونَ إلى جوازِ أن تكونَ مفعولًا لأجلِهِ، لبيانِ سببِ خروجِهم، أي: إنَّ البطرَ والرّياءَ والصَّدَّ عن سبيلِ اللّهِ، حملهم على الخروجِ، فيكونُ المرادُ تبييتَهُم النّيَّةَ، على أن يخرجوا لهذا الغرضِ، فهو من قبيلِ العلَّةِ الغائيَّةِ[1].

نكتةُ مجيءِ الحالِ مصدرًا:

مجيءُ الحالِ مصدرًا يفيدُ المبالغةَ، وهو من البيانِ الجميلِ

في قولهِ تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ جاءَ الحالُ هنا مصدرًا للمبالغةِ، بمعنى تمكُّنِ عينِ البَطَرِ، وعينِ رئاءِ النّاسِ منهم، فأحوالهُم قد جمعتْ كلَّ البطرِ، وكلَّ الرِّئاءِ[2]، ومعلومٌ "أنَّ النِّعمَ إذا كَثُرَت مِنَ اللّهِ تعالى على العبدِ، فإن صرفَها إلى مرضاتهِ تعالى، وعرفَ أنَّها من اللّهِ تعالى، فذاكَ هو الشُّكرُ، وأمّا إن توسَّلَ بها إلى المفاخرةِ على الأقرانِ، والمغالبةِ بالكثرةِ على أهلِ الزَّمانِ، فذاك هو البطرُ"[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولهِ: ﴿وَرِئَآءَ﴾:

كلمةُ ﴿وَرِئَآءَ﴾، قرأها أبو جعفرٍ (رياءً)، بإبدالِ الهمزةِ ياءً[4]،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/188، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/616، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/99، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

(3) الجاوي، مراح لبيد: 1/428.

(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 1/396.

ووجودُ الهمزةِ، وتَحقُّقُ النُّطقِ بها يتيحُ ثراءً في المعنى؛ حيثُ يكشفُ عن حالةِ التَّكلُّفِ في الحشدِ والاستعراضِ من قبل المشركين، وقد ظهرَ رياؤُهُم في قولِ أحدِ زعمائِهم: (واللّهُ ما نرجعُ عن قتالِ محمَّدٍ، حتَّى نردَ بدرًا، فنشربُ فيها الخمورَ، وتعزفُ علينا القيانُ، وننحرُ الجزورَ في بدرٍ، فيثني النّاسُ علينا بالشَّجاعةِ والسَّماحةِ) [1].

اختلافُ القراءاتِ مفيدٌ في التَّأويلِ وانفساحِ الدَّلالةِ

دلالةُ مجيءِ الأحوالِ على العطفِ:

لمّا جاءتِ الأحوالُ معطوفةً، وكانتِ الواوُ تفيدُ الجمعَ المطلقَ في الحالِ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بيانُ واقعِ حالِ المشركين حين خروجِهم من ديارِهم، وليس المرادُ النَّهيَ عن الاتِّصاف بهذهِ الأحوالِ، حالَ اجتماعِها فقط، فإنَّها مذمومةٌ مجتمعةً أو منفردةً.

الصِّفاتُ القبيحةُ مذمومةٌ، مجتمعةً كانت أو منفردةً

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المصدرِ (فِعالِ):

لمّا كانَ ﴿وَرِئَآءَ﴾ مصدر (راءى) (فاعَلَ) من الرُّؤيةِ؛ كان على معنى المفاعلةِ، وتفيدُ الصّيغةُ معنى المبالغةِ من جهتين: إحداهما مجيئُها على صيغةِ المصدرِ - كما تقدَّم - والأخرى مجيئُها بصيغةِ المفاعلةِ، أي: بالغوا في إراءةِ النّاسِ عملهم، رغبةً في أنْ يروهم ليفخروا عليهم[2].

المرائي يحبُّ أن يراهُ النّاسُ، ليفخرَ عليهم

بلاغةُ العُدولِ عن المصدرِ إلى صيغةِ المضارعِ:

عبَّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ عطفًا على المصدرين ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وهو خلافُ الظّاهرِ؛ لأنَّ الأصلَ في العطفِ توافقُ المعاطيفِ في الاسميَّةِ والفعليَّةِ، ونكتتُهُ أنَّ الاسمَ لمّا كانَ على معنى الثُّبوتِ والتَّمكين، عبَّرَ بالمصدرين، إيذانًا بأنَّ البطرَ والرِّئاءَ كانا وصفين ثابتين لهم، راسخَين في أنفسِهم، أي: كانوا مجبولين على البطرِ والمفاخرةِ والعُجبِ، ولمّا كانَ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ، حصلَ

تجدُّدُ فعلِ الصَّدِّ من الكافرين، ومزوالتِهم لهُ، أمرٌ معهودٌ موجودٌ

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/428.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

في زمنِ دعوةِ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ عُبِّرَ بالفعلِ على معنى حدوثِه منهم، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ؛ لأنَّ المرادَ تجدُّدُ فعلِ الصَّدِّ من الكافرين، ومزوالتِهم له، بمعنى أنَّ الصَّدَّ يحدثُ منهم شيئًا فشيئًا، متجدِّدًا متزايدًا، كما أنَّ في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ استحضارًا لصورة صدِّهم عن سبيلِ اللّهِ، تبشيعًا لفعلِهم وتقبيحًا له[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ (بَطَرًا):

البطرُ آفةٌ تُدمِّرُ الكيانَ، وتجني على فطرةِ الإنسانِ

في قولِه تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ أفادَ التَّنكيرُ تفخيمَ البطرِ وتعظيمَهُ، لِما يقتضيه المقامُ من ظهورِ خُيَلائِهم وكِبَرِهم وكفرِهم بنعمِ اللّهِ عليهم، والبطرُ صفةٌ نفسيَّةٌ، تلبسُ صاحبَها، وتحرِّكُ فيه نوازعَ شتَّى من الضَّلالِ المؤذي، بأساليبَ استعراضيَّةٍ شتَّى، بطرًا ورياءً وصدًّا عن سبيلِ اللّهِ (ﷻ).

نكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾:

الرّياءُ: لا يكونُ الفعلُ والقصدُ إلّا مِن أجلِ النّاسِ

أضافَ المصْدَرَ ﴿وَرِئَآءَ﴾ إلى مفعولِه؛ للإشعارِ بأنَّ الرّياءَ، لا يكونُ إلّا منْ أجلِ النّاسِ، وبيانُه أنَّهُ لمّا ذكرَ الحاملَ لهم على الخروجِ من أنفسِهم في قوله: ﴿بَطَرًا﴾ بمعنى: إظهارِهم فخرَهم، ومقابلتِهم النِّعمةَ بالتَّكبُّرِ؛ ذكرَ ما أوجبَهُ لهم من غيرِها، فقالَ: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: خرجوا يرون النّاسَ خروجَهم، وأحوالَهم الَّتي كانوا عليها، من شربِ الخمورِ، ونحرِ الجزورِ، وعزفِ القيانِ، ليثنوا عليهم بالشَّجاعةِ والسَّماحةِ[2].

دلالةُ (أل) في لفظِ (النّاسِ) في قولِه: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾:

الرّياءُ مظهرٌ زائفٌ، وإرضاءُ النّاسِ غايةٌ لا تدركُ

تفيدُ (أل) هنا الاستغراقَ، بمعنى: أنَّ رياءَهم، كان من أجلِ كلِّ النّاسِ، وليس من أجلِ المؤمنين فقط، أي: كانوا يطلبونَ إظهارَ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 175، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/491، والقوجويّ، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على البيضاويّ: 4/401.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

جميلِ أفعالِهم، وإخفاءَ قبيحِ باطنِهم، لكلِّ النّاس، وهذهِ ظاهرةٌ متفشّيةٌ في أهلِ الرّياءِ، تراهُم يتظاهرونَ بإبرازِ الأعمالِ إلى كلِّ النّاسِ، وكلَّما فشا الخبر، وانتشرَ الأثرُ؛ كانَ ذلك أمتعَ لنفوسِهم، وأشبعَ لرغبتِهم في الظُّهورِ، وهو رغبةٌ نفسيَّةٌ تسيطرُ على صاحبِها، فتودي بهِ في مسالكِ المهالكِ.

فائدةُ ذكرِ قولِهِ: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

لمّا كان المشركونَ خرجوا على هذه الأحوالِ، أو لهذه الغايةِ، كان جزاؤُهم من جنسِ أعمالِهم، وذلك أنَّ أبا جَهْلٍ، لمّا علمَ بنجاةِ عيرِ أبي سفيان، قال: واللهِ لا نَرْجِعُ؛ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا، فنُقيمُ بها ثَلاثًا، فنَنْحَرُ الجَزورَ، ونُطْعِمُ الطَّعامَ، ونَسْقي الخَمْرَ، وتَعْزِفُ عَلَيْنا القيانُ، وتَسْمَعُ بنا العَرَبُ، فلا يَزالونَ يَهابونَنا أبَدًا، فكان جزاؤهم حينَ وافَوْها أن سُقوا كؤوسَ المَنايا مَكانَ الخَمْرِ، وناحَتْ عليهمُ النَّوائِحُ مَكانَ القيانِ، وكانت أموالُهُم غنائمَ بدلًا عن بذلِها، ورجعوا أذلّاءَ مهانينَ، ودخلَ العربُ بعدَها أفواجًا في دينِ اللهِ[1].

الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما تدينُ تدانُ

بلاغةُ حذفِ مفعولِ الفعلِ:

لمّا كانَ الفعلُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ متعدّيًا؛ دلَّ على أنَّ حذفَ المفعولِ بقصدِ العمومِ، وليس لدلالةِ السّياقِ عليه، ليفيدَ أنَّ صدَّهم عن سبيلِ اللهِ؛ كان لأنفسِهم وللمؤمنين، لأهلِ مكَّةَ ولِغيرِهم، والمعنى: يصدّونَ أيَّ إنسانٍ عن سبيلِ اللهِ؛ لأنَّهم أحرى بذلك، من أنْ يقتصرَ صدُّهم على أنفسِهم[2].

الصّادّونَ عن سبيلِ اللهِ، يصدّونَ أنفسَهم وغيرَهم

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

لمّا كان النَّهيُ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾، يقتضي أن يكونَ المنهيُّ عنهُ جملةً معلومةَ الانتسابِ إلى مشارٍ إليهِ؛

قبحُ الصِّفاتِ إشعارٌ بقبحِها، وضرورةُ تبشيعِ فعلِ من يتَّصفُ بها

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/299، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/211.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/537، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/616، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

ناسبَ أن يعبِّرَ بالموصولِ وصلتِه؛ ليكونَ الاجتنابُ عن حالةٍ معلومةٍ واضحةٍ، كما أنَّ في التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ إشعارًا باستهجانِ التَّصريحِ باسمِهم، في مقامِ الكفرِ بنعمةِ اللهِ، والطُّغيانِ فيها، والتَّكبُّرِ وإظهارِ السُّمعةِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، وليكونَ على معنى العمومِ، ففيهِ نهيُ المؤمنين، عن أن يكونوا مثلَ كلِّ مَنْ عملَ مثلَ عملِهم، وفيه أيضًا تنبيهُ المؤمنين إلى وجهِ بناءِ النَّهي عن ما ذكرَ، للإشارةِ إلى قبحِ هذه الصِّفاتِ، وقبحِ من يعملُ مثلَها، ومن أجلِ تذكيرِهم بأنْ يكونوا على الضِّدِّ منها[1].

نكتةُ ذكرِ الأحوالِ الثَّلاثةِ:

لمّا أمرَ اللهُ تعالى بالصَّبرِ في الآيةِ السّابقةِ، وكان من معاني الصَّبرِ ضبطُ النَّفسِ عن الطُّغيانِ وغيرِه، وكان الَّذي يضادُّ هذا المعنى، هو البطرُ والرّياءُ الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ[2]، ناسبَ أن يذكرَ ما كانَ عليهِ المشركونَ، حالَ خروجِهم من ديارِهم مِنَ الأحوالِ الَّتي كانوا عليها.

الصَّبرُ يضادُّ البطرَ والرّياءَ والصَّدَّ عنِ سبيلِ اللهِ

دلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والحالِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ تحتمل الواوُ أن تكونَ استئنافيَّةً؛ لتقريرِ معنى جملةِ التَّذييلِ، وتحتمل أن تكونَ حاليَّةً، وهو الظّاهرُ؛ لتكون الجملةُ حالًا من ضميرِ ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾[3]، أي: فعلوا ما فعلوا بخروجِهم بَطِرينَ مُرائين، صادّين عن سبيلِ اللهِ، والحالُ في ذلك كلِّه أنَّ اللهَ محيطٌ بهم، عالمٌ بأحوالهم كلِّها.

الحرفُ يحتملُ أكثرَ من تأويلٍ، وهو جزءٌ من البنيةِ الدّلاليَّةِ للسّياقِ

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (ما):

في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، لمّا كانَ الاسمُ الموصولُ (ما) يفيدُ العمومَ دلَّ على إحاطةِ علمِ اللهِ بأعمالِهم جميعًا، وفي

إحاطةُ علمِ اللهِ بالأعمالِ جميعًا، دليلٌ على سعتِه واتِّساعِه

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/296.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

ذلك إشارةٌ إلى "أنَّ اللَّهَ ﷻ محيطٌ بكلِّ أعمالِهم، لا يغيبُ عنه عملٌ واحدٌ ممّا يفعلونَهُ، هو محيطٌ بهم تمامًا، وهم لا يستطيعونَ أن يفلتوا منهُ" [1].

بلاغةُ المجازِ:

إسنادُ الإحاطةِ إلى اللّه تعالى في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، مجازٌ عقليٌّ، والمرادُ علمُه سبحانه، وفائدتُهُ تعظيمُ الأمرِ وتهويلُهُ، لما يقتضيه مقامُ الألوهيَّةِ من الخوفِ والرَّهبةِ من المحاسبةِ والمجازاةِ[2]؛ "لأنَّهُ سبحانَه محيطٌ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وسيجازي الَّذين أساؤوا بما عملوا، ويجازي الَّذين أحسنوا بالحُسنى" [3].

اللهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ علمًا، فلا يعزبُ عن علمِهِ شيءٌ

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، تقدَّمتْ شبهُ الجملةِ ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، على الخبرِ ﴿مُحِيطٞ﴾، وفائدةُ التَّقديمِ إمّا أن تكونَ من بابِ تعجيلِ المسرَّةِ للمؤمنين، وتعجيلِ المضرَّةِ للكافرينَ، فقدَّمَ ما كانت العنايةُ إليهِ مُنصبَّةً، وإمّا أن تكونَ لِلحصرِ الإضافيِّ الادِّعائيِّ؛ لأنَّه تعالى يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لشدَّةِ إحاطتِه بأعمالِهم، كأنَّهُ لا نظرَ لَهُ إلى غيرِها، فلا شاغلَ لَهُ عنها، ترهيبًا لهم[4].

علمُ اللهِ بأعمالِ المشركين مسرَّةٌ للمؤمنين، ومضرَّةٌ للكافرين

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

التَّعبيرُ بقولِه: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ هنا دونَ (يفعلون)؛ لأنَّ العملَ يكونُ فيما يمتدُّ زمانُهُ، وما يكون عن قصدٍ وتخطيط، ولِما من شأنِه أن يُحدث أثرًا، بخلاف الفعل[5]، وقد باءت أعمالهُم بالخسرانِ، وآلوا

مدلولُ العملِ يخالفُ مدلولَ الفعلِ، وكلاهُما يُحصى على الإنسانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/116.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/279.
(5) الرّاغب، المفردات: (فعل) و(عمل). والشّعراوي يفرّق بين (عمل) و(فعل)، وأن (عمل) تشمل الفعل والقول، قال في تفسيره: "إذن، فالقول محلّه اللّسان، والفعل محلّه بقية الجوارح، والاثنان يجمعهما العمل"، يُنظر: الشّعروايّ، تفسير الشّعراوي: 5/2978.

بها إلى سوءِ العاقبةِ، وأشنع النَّهايةِ، "فأوردَهُم - إذ خرجوا يحادّونَهُ - بدرًا، فنحرَ مكانَ الجزورِ رقابَهم، وسقاهُم مكانَ الخمورِ كؤوسَ المنايا، وأصاحَ عليهم مكانَ القيانِ صوائحَ النَّوائحِ"[1].

بلاغةُ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ بينَ التَّصريحِ والكنايةِ:

لا تخفى على اللهِ خافيةٌ، ولا يعزبُ عن علمِهِ شيءٌ

هذا الكلامُ جمعَ بينَ الصَّريحِ والكنايةِ باعتبارين، فهو تذكيرٌ للمسلمين بصريحِ المعنى باعتبارِ أنَّهُ خطابٌ لهم، ليكون على معنى تقريرِ ما في اعتقادِهم وتأكيدٍ له، وهو وعيدٌ للكفّارِ وتهديدٌ لمن بقي منهم بالمعنى الكنائيِّ؛ لأنَّ إحاطةَ العلم بما يعملون مجازٌ في عدم خفاءِ شيءٍ من عملِهم عن علمِ اللهِ تعالى، فيكون المرادُ منه لازمَ علمِه تعالى بما يعملون، وهو المجازاةُ، أي: إنَّه مجازيهم عن عملِهم بما يجازي بهِ العليمُ القدير من اعتدى على حرمهِ، وهذا يقتضي التَّوبةَ والاستعدادَ باللّازمِ الأبعدِ[2].

حُسْنُ التَّذييلِ:

براعةُ التَّذييلِ، لعمومِ المعنى ولجريهِ مجرى المثلِ

تفيدُ جملةُ التَّذييلِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فوائدَ؛ هي: أوَّلًا: عمومَ المعنى وكلّيَّتَهُ. وثانيًا: لمّا كانت الجملةُ تفيدُ عمومَ المعنى؛ كانت جاريةً مجرى المثلِ في الكلامِ، وثالثًا: أفادتِ الجملةُ بشارةً للمؤمنينَ، بالإيذانِ بعلمِ اللهِ بما يعملُهُ المشركون، وأنَّهُ مجازيهم، على ما يفعلونَهُ بالمؤمنين، وفيها تهديدٌ للكافرين، ووعيدٌ لهم كما تقدَّمَ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّعف والفَشَل والوَهن:

الفشلُ يكونُ عِنْد الحَرْبِ والشِّدَّةِ؛ إذا ضَعُفَ وكسلَ، وتثاقلَ وذَهَبت قواهُ، فأبطأ عن اللِّقاءِ، أو هو ضعفٌ مقرونٌ بجبنٍ؛ لما فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/234، والواحديّ، التّفسيرالوسيط: 2/456، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/537، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/333، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/234.

من معنى التَّراخي، وعدمِ الثَّباتِ، ومنهُ تَفَشَّلَ الماءُ: سالَ، فيكون الفشلُ عند اللِّقاءِ والشَّدائدِ، ويكون الفشلُ في الحالِ لا في البدنِ[1]، فناسبَ ذكرُ الفشلِ في سياقِ هذه الآيةِ، وأمّا الضَّعفُ؛ فهو ضدُّ القوَّةِ، أي: هو نقصانُ القوَّةِ، وهو من فعلِ اللّهِ تعالى، كما أنَّ القوَّةَ من فعلِ اللّهِ، تقولُ: خلقَهُ اللّهُ ضعيفًا، أو خلقَهُ قويًّا، والضَّعْفُ قد يكونُ في النَّفسِ، وفي البدنِ، وفي الحالِ، قال تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آل عمران: 146]، أي لم يضعفوا بنقصانِ قوَّتِهم، فيكونُ الضَّعفُ مستعملًا في الحربِ وغيرها، وقال الخليلُ: الضُّعْفُ بالضَّمِّ في البدن، والضَّعْفُ بالفتحِ في العقلِ والرَّأي، وأمّا الوهنُ؛ فهو من حيثُ الخَلْقُ، أو الخُلُقُ، وهو أن يفعلَ الإنسانُ فعلَ الضَّعيفِ، تقولُ: وهنَ في الأمرِ يهنُ وهنًا، وهو واهنٌ، إذا أخذ فيهِ أخذَ الضَّعيفِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]، أي: لا تفعلوا أفعالَ الضُّعفاءِ، وأنتم أقوياءُ على ما تطلبونَهُ، بتذليلِ اللّهِ إيّاهُ لكم، فلا يقالُ: خلقَهُ اللّهُ واهنًا، كما يقالُ: خلقَهُ اللّهُ ضعيفًا، ويحتملُ أن يقالَ: الضُّعفُ: نقصانُ القوَّةِ - كما تقدَّمَ - والوهنُ هو انكسارُ الجسدِ بالخوفِ ونحوهِ، ويكونُ في الحربِ وغيرِها كذلك[2].

الضَّعْفُ: نقصانُ القوَّةِ، والوهنُ: فعلُ الضَّعيفِ، والفشلُ: الضَّعفُ المقرونُ بجبنٍ

البَطَر والجَحْد وكُفر النِّعمة والتَّكبُّر:

لفظُ ﴿بَطَرًا﴾ لم يَرِدْ في القرآنِ الكريمِ إلّا في موضعينِ، هنا وفي سورةِ القصصِ، في قولهِ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: 58]، وقد قرَّرَتْ آيةُ القصصِ بوضوحٍ أنَّ البطرَ كانَ سببًا في إهلاكِ القُرى لما لهُ من آثارٍ وخيمةٍ، والفرقُ بينَ البطرِ وكفرانِ

البَطَرُ: هو الطُّغيانُ عند النِّعْمَةِ، وهو اللَّفظُ المعبَّرُ بهِ في هذه الآيةِ بدقَّةٍ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم والمخصّص، والرّاغب، المفردات: (فشل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 115 - 116، والرّاغب، المفردات: (ضعف، وهن).

النِّعَم والتَّكبُّرِ والجحودِ: هو أنَّ البطرَ هو الطُّغْيانُ عند النِّعْمَةِ وطولِ الغِنَى، حتَّى يصلَ إلى حدِّ الدَّهشِ، فلا يضبط صاحبُه نفسَهُ، ففيه معنى دفعِ الحقِّ والفخرِ والبغي ومجاوزةِ الحدِّ في الطُّغيانِ، وبَطَرُ الحقِّ ألّا يَراهُ حَقًّا، ويَتَكَبَّرَ عَنْ قَبولِه لطغيانِه ودهشِه، وبطرُ النِّعمةِ: هو تعظيمُها مع البغي فيها، وبطرَ فلانٌ نعمةَ اللّهِ: استخفَّها، فكفرَها، وبغى فيها، ولم يسترجعْها، فيشكرُها، وأمّا كفرانُ النِّعمةِ؛ فهو تغطيَتُها وإخفاؤُها وتركُ شكرِها، فلا يتضمَّنُ الكفرانُ معنى الطُّغيانِ والدَّهشِ والأشَرِ، كما هو في البطرِ، والجحودُ هو نقيضُ الإقرارِ مع العلمِ بالحقِّ، أو هو نفيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نفيُهُ، وقد يكونُ للنِّعمةِ أو غيرِها، والبطرُ يغايرُ الكِبرَ والتَّكبُّرَ والاستكبارَ، فالكِبرُ إعجابُ الإنسانِ بنفسِه، بأن يرى نفسَهُ أكبرَ من غيرِه، فيرفضَ الحقَّ، ويمتنعَ عن قبولِه، والتَّكبُّرُ أعمُّ من البطرِ من حيثُ مقابلةُ النِّعمةِ، فلا يختصُّ بالنِّعمِ وحدَها[1].

الرِّئاء والنِّفاق:

النِّفاقُ: إظهارُ الإيمانِ وإبطانُ الكفرِ، والرِّياءُ: إظهارُ الفعلِ لحمدِ النّاسِ فحسبُ

الفرقُ بينهما: هو أنَّ النِّفاقَ إظهارُ الإيمانِ، مع إبطانِ الكفرِ وإسرارِه، ولايقعُ اسمُ النِّفاقِ حينَ إطلاقِ اللَّفظِ على من يُظهرُ شيئًا، ويُخفي غيرَهُ، إلّا الكفرَ والإيمانَ، والرِّئاءُ: إظهارُ الخيرِ مع إبطانِ الشَّرِّ، مع قصدِ إظهارِ الجميلِ، وإبطانِ القبيحِ، ليكونَ حسنَ المرأى، فيُمدحَ بين النّاسِ، أو هو إظهارُ جميلِ الفعلِ رغبةً في حمدِ النّاس لا في ثوابِ اللّهِ تعالى، فليس الرّياءُ من النِّفاقِ في شيءٍ، فإنِ استعملَ أحدُهما في موضعِ الآخر، فعلى التَّشبُّهِ[2].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (بطر، جحد، كبر، كفر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 231.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 228 - 229، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/490.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»